١

الشرق الأوسط
عدد ٢٤٩٢ الثلاثاء
١ محرم ١٤٠٦هـ
٢/٩/١٩٨٥م

اللغة وهجٌ .. يحتاجُ إلى ماءٍ وزيتٍ

يبدو ان عرب المغرب متفقون على انهم يضطلعون الآن بدور مهم في المجال الثقافي، وهذا الدور يتمثل في اعادة انتاج الغرب وتقديمه لعرب المشرق. او قولوا: تقديمه للعرب بصفة عامة، حتى لا نضيع في تحديدات جغرافية وسياسية من شانها ان تهدف الى فرز «العربين!».

وهذا الذي اتفق عليه عرب المغرب صحيح الى حد بعيد، وله عدد من المردودات الايجابية على الثقافة العربية، سواء في جناحيها الابداعي او الجناح الاخر وهو التقويمي والمعرفي. وتلك المردودات تنشا - بطبيعة الجال - كاحدى المعطيات الطبيعية للاحتكاك، والتلاقح بين الثقافات المختلفة. فهناك التزود المعرفي، والاستعارة، والاقتباس، والتقليد والمحاكاة. وهذا كله يخلص في النهاية الى «تفرد» ذاتي ابداعي وتقويمي.

ونحن لا تهمنا هنا عملية «اعادة انتاج الغرب» في ميكانيكيتها وطبيعة سيرورتها، كما لا يعنينا التفصيل في الحديث عن ايجابياتها او مضاعفاتها السلبية، فذلك حديث اخر قد تاتي مناسبته في يوم اخر. لكن الذي سنطرحه هنا - بشيء مما يوائم جريدة سيارة - هو «التفرد» الذاتي المغربي في الانتاج الثقافي وعلاقته بمهمة اعادة انتاج الغرب. وسنركز على بعد واحد وهو البعد اللغوي.

على المستوى البسيط والمعقد قد نلمح اول مشكلات التجربة المغربية متمثلة في اختلاط بعض المفاهيم، وتناقض مؤديات بعض المصطلحات، او غموضها وتشويشها. وهذه حالة لا تعيشها التجربة المغربية وحدها، بل ان المشارقة يتورطون - هم ايضا - في هذه المشكلة.

والمغاربة والمشارقة لهم بعض العذر في نشوء هذا «الارتباك» في المفاهيم والمصطلحات، ليس فقط لان نقل تلك المفاهيم وتلك المصطلحات ظل مسألة اجتهادية فردية لدى الفريقين، ولكن لان اللغة العربية نفسها ليس في ثقافتها الاصلية اسس معرفية، او ارضية ثقافية فلسفية من شأنها ان تخصب المصطلح نفسه، او على الاقل تساعد على تقريبه من الافهام. فاكتشاف تلك المصطلحات حصل على ارضية ثقافية ومعرفية مختلفة ومتباينة والحديث عن اللسانيات جاءنا في العربية - اول ما جاء - وكأنه مجموعة من الالغاز المغلقة المستعصية على الفهم، بله الاستيعاب. فلا معرفيا ولا استعدادا ثقافيا وفلسفيا كانت البيئة الثقافية العربية، او - اكثر تحديدا - اللغة العربية ذاتها مهيئة لقبول «الحركة» واستيعابها والتفاعل بندية معها. الاسباب - اذن - وكما تبين، لا تكمن فقط في المثقف واجتهاداته الفردية ولكنها تنسحب - تاريخيا ومنطقيا - على اللغة العربية نفسها، وعلى الحصائل المعرفية لثقافتنا بمجملها. والحل - في جملة سنحاول ان تكون مفيدة ومختصرة - هو ان يحاول المثقفون - في جماعية - الاتفاق على المصطلحات ومؤدياتها لدرء التناقض والتعارض واختلاط المفاهيم، ثم يحاول المثقفون ايضا - في مهمة انبل واخطر - خلق سياق اجتماعي وتاريخي وفكري يهيىء لقبول المعرفة الجديدة واستيعابها وتمثلها، وهذا السياق هو الذي سيجعل اللغة قادرة على ان تتحمل المعطيات الجديدة التي نريد. وبغير هذه الاشياء سيبقى اختلاط المفاهيم، وتعارض المصطلحات، وبغير هذه الاشياء ايضا ستبقى اللغة العربية عاجزة عن استيعاب الفكر الجديد. وسنجد ان في «اعادة انتاج الغرب» اشياء قريبة من العبث، وسيظل

ثقافة عامة

بعض المثقفين العرب ممن يكتبون بلغات اجنبية يعزفون عن السماح لاحد بترجمة انتاجهم الى لغتنا لأن ذلك الانتاج سيخرج مشوها وغير مفهوم. او انهم سيتعاملون مع الترجمات بكثير من الحذر والتشاؤم. وهذا احد المفكرين المغاربة انفسهم، هو د. عبد الله العروي، يضع تنبيها في مقدمة احد كتبه (مجمل تاريخ المغرب) يقول فيه: «صدر النص الفرنسي لهذا الكتاب في باريس سنة ١٩٧٠ فتطاول عليه احد المترجمين المحترفين هو ذوقان قرقوط واصدر ـ تحت عنوان تاريخ المغرب محاولة في التركيب ـ نصا متضاربا مشوها لا يكاد يفهم». ثم يسوق العروي بعض الامثلة الفظيعة، والتي لا تفهم بالفعل. ولكن العجيب ان العروي في هذا الكتاب (حين اعاد ترجمته بنفسه) وفي غيره من كتبه مثل «ازمة المثقفين العرب» و «ثقافتنا في ضوء التاريخ» نقع منه على جمل وفقرات طويلة غير مفهومة.

والسبب ليس فقط ما هو معروف عن هذا المفكر المغربي من ضعف في العربية، مقارنة بفرنسيته الممتازة، ولكن السبب يعود كذلك الى المشكلة ذاتها التي ما فتئنا نتحدث عنها منذ قليل وهي سوء علاقة الثقافة واللغة العربيتين بالثقافات الاجنبية الجديدة. وبما ان العروي مغموس في ثقافة الغرب، ومناهجه، وهو يفيد من ذلك بالتأكيد في الطريقة والمعالجة والاستنتاج وتطبيق النظريات واقتباس المفاهيم. فانه لا بد ان يقع في المحذور، وهو اختلاط المفاهيم، وتناقض المصطلح، والابهام في التركيب والنسق التعبيري. وهو ليس وحيدا في التورط في هذه الوضعية بل هناك غيره كثيرون.

وهنا سننتقل الى وجه آخر من اوجه حركة البعد اللغوي صعودا وهبوطا، سلبا وايجابا.. ودائما في المغرب العربي. ان هذا الوجه الذي نعنيه لا يتعلق بالمصطلح تخصيصا، وانما بالتعبير المباشر عن الافكار البسيطة، واحيانا المعقدة، ولكن مما نجد له ـ عموما ـ اوعية لغوية جاهزة وكاملة في اللغة العربية. فالمثقفون المغاربة ـ متاثرين بالثقافة الفرنسية او راضخين لشروع اعادة انتاج الغرب ـ يبهمون في لغتهم العربية احيانا كثيرة، لاسيما بالنسبة الى القراء العرب ممن ليس لهم معرفة باللغة الفرنسية، ونعني اولئك الذين لا يتهيا لهم مقارنة النص بما يمكن ان يقال في الفرنسية. والمسالة احيانا لا تصل الى درجة الابهام، ولكن هناك استعمالات لغوية لدى عرب المغرب قد تبعث على الابتسامة او الدهشة. ومثل هذه الاستعمالات قد نلاحظها بسهولة وبوضوح اشد في الصحافة والاذاعة وفي اللافتات المعلقة على المحلات التجارية، وفي اللوحات الارشادية والدعائية الاعلانية. والمسالة هنا لا تتوقف عند حد التاثر باللغة الفرنسية، بل تذهب الى ابعد من ذلك وهو الترجمة الحرفية لجمل جاهزة في الفرنسية فتخرج غير مفهومة لعجمتها، او مضحكة لطرافتها.

وعلاقة عرب المغرب باللغة الفرنسية

تتجاوز حجم حركات التعريب القائمة الان، وتتجاوز اهداف تلك الحركات. فالتعريب لا يمكن ان يكون بقلب الكلمات الفرنسية الى ما يقابلها - بصفة قاموسية - في العربية. وانما التعريب هو التصاق حقيقي وشامل بتراث الأمة اللغوي العريق. وهذه المصارحة لن تغضب اشقاءنا عرب المغرب. وهي بعيدة عن اي تشكيك في انتماءاتهم العربية الصميمة، او في حماسهم للغة والتراث. بل انني لحريص ان اضمنها تحية صادقة لهذا الجزء - المهم والرئيس من القلب العربي والذي يدهشنا دائما بعراقته العروبية في كل شيء. لكن مسالة التاثر والتاثير في هذا المستوى من الاداء الثقافي والفكري مازالت قائمة وواضحة وفي محاولة موضوعية ننظر اليها هكذا:

جانبها الايجابي: فلا شك ان لهذه المعاينة حول علاقة عرب المغرب باللغتين العربية والفرنسية منحى ايجابيا لاسيما على ايدي المثقفين الضليعين في اللغتين وهم عديدون هناك. وهذا المنحى يتمثل في اثراء اللسان العربي من حيث الابتداع التعريبي على الصيغ والأوزان العربية المعروفة، التصريف، والتوليد الجديد. واهم من ذلك واقرب الى قلوب الأدباء والمبدعين هي تلك النهاية الموصلة الى اكتشاف علاقات جديدة بين المفردات بما تحمل هذه النتيجة من معطيات خيرة تنعكس على الايحاء والرمز واللغة الشعرية بصفة عامة، في القصة وفي الشعر نفسه. وبما يمكن ان تسهم به - مواكبة لاعادة انتاج الغرب - من توسيع مدارك اللغة نفسها، والتهيئة لسياق معرفي جديد نحن في حاجة اليه رافدا لثقافتنا، وموصلا فعالا بثقافة الغرب. وهذا امر مهم وجيد، وقد يدفع بنا كذلك الى اكتساب المناهج التي تساعد على اعادة اكتشاف التراث والثقافة العربيين من جديد.

الجانب السلبي: لكن التمادي والاغراق السريع للغة العربية بهذه «اللغة الجديدة» قد يؤدي الى نتيجتين خطرتين:

● الأولى: هي القطيعة بين ثقافتي المشرق والمغرب العربيين. بل ربما كانت المبالغة في هذا الاغراق - مع مر السنين وكرها - عاملا محرضا لنشوء لغة ثانية في هذا الجزء من العالم العربي.

● الثانية: وهي غربة اللغة العربية الأصل (او التراثية) بين اهلها من عرب المغرب وذلك بما ينطوي عليه مثل هذا الفعل من تحديات واضحة وجريئة لقواعد واسس لغوية وانساق وتراكيب تعبيرية تقاليدية راسخة لا تقبل التساهل او التنازل. وربما جاء جيل لا يستطيع ان يفهم قرانه الكريم وتراثه المجيد. وربما لن يبقى لهذه اللغة من هويتها - عنده - الا انها لغة قديمة وذات اصوات جميلة.

اعتقد ان مثل هذه الملاحظات على حركة النمو الثقافي لدى عرب المغرب - لاسيما في بعده اللغوي - جديرة بان تنال الاهتمام اللازم بين المثقفين والمؤسسات العلمية والتربوية ووسائل الاعلام في هذا الجزء من عالمنا. كما اعتقد ان علاقة اللغة العربية - عموما - بالثقافات الاجنبية الجديدة موضوع يجب ان يتنبه له جميع المثقفين العرب وان يتجاوزوا فيه، وان يجعلوا منه مادة حية للعديد من اللقاءات والمؤتمرات والبحوث الجادة.

● ملاحظة اولى:
المقصود بالمغرب في هذا المقال المغرب العربي الكبير.

● ملاحظة ثانية: حرضني على الكتابة في هذا الموضوع الروائي والاديب المغربي المعروف الاستاذ احمد عبد السلام البقالي.